المكتبات ((خزائن الكتب)) واهميتها في العصر الايوبي:

بالرغم من إن المكتبات لم تكن مؤسسات علمية قائمة بذاتها، إلا أن أهميتها تأتي من كونها رافداً مهماً من روافد دعم المؤسسات العلمية كالمساجد والمدارس ومراكز الصوفية، التي انتشرت بشكل واسع في مختلف مدن مصر الأيوبية، هـو ما يمثل جزءً من السياسة التي اتبعها سلاطين بني ايوب لمحاربة الفكر الاسماعيلي من جهة ولنشر مبادئ وأفكار المذاهب السنية الأربعة لا سيما المذهب الشافعي ذو العقيدة الأشعـرية من جهة اخرى، لذا فان معظم تلك المنشآت اقترنت بمكتبات ضخمة رتبها مؤسسوها لتكون عوناً لطلبة العلم والمدرسين معاً في دراستهم . ومما عزز من أهمية تلك المكتبات، عدم تيسر الحصول على الكتب في تلك الحقبة، إذ لم يكن باستطاعة الكثير من طلبة العلم والمدرسين على حدٍ سواء اقتناؤها، نظراً لارتفاع أثمانها وقلة الموجود منها، فجميع الكتب كانت مخطوطات تعتمد في كتابتها على النسخ اليدوي مع احتمال ارتفاع مواد الكتابة من ورق الجلد والأحبار ونحو ذلك، ومن هنا أدت المكتبات دوراً مهماً في تجنيب الطلبة والمدرسين من المعاناة الناتجة عن جشع تجار الكتب مع قرائها ومغالاتهم في البيع بأسعار

عالية .

عندما تسلم الأيوبيون مقاليد الحكم في مصر عمد الملوك والأمراء منهم للاستيلاء من قصور وخزائن وكنوز قسمت فيما بين رجال الحكم الجديد، وكان من بين تلك الممتلكات بل أهمها على الإطلاق، مكتبة القصر الفاطمي التي وصفها مؤرخ الشام شهاب الدين ابو شامه بقوله (كانت من عجائب الدنيا لأنه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من تلك الدار..ويقال إن بها ألفي ألف كتاب) وقد تولى الامير بهاء الدين قراقوش الصلاحي (ت597هـ/1200م) الذي عينه السلطان صلاح الدين مشرفاً على شؤون قصر الخلافة، التصرف بتلك المكتبة، فتخلص أولاً من أعداد كبيرة من كتب الفقه والعقائد التي تختص بالمذهب الاسماعيلي، أما بحرقها واتلاف الكثير منها، فيما أُلقي بعضها الآخر في حفرة عميقة ثم غُطيت بالتراب ، فيما مُنِحَ كبار رجال الدولة الأيوبية وموظفيها كل ما امتدت اليه أيديهم من المخطوطات ونوادر الكتب، وكان للقاضي الفاضل، النصيب الأوفر من تلك التركة إذ بلغ مجموع ما حصل عليه من تلك الكتب زهاء المائة ألف كتاب . وحصل رفيقه العماد الأصفهاني الكاتب (ت 597هـ/1200م) على كميات كبيرة أخرى منها . وما تبقى من الكتب فقد فتح الباب على مصراعيه أمام دلالي الكتب لشراء ما يرغبونه منها، إذ كان قد خصص يومان في الاسبوع لبيع تلك الكتب المستباحة، وتولى الدلالون تلك المهمة باشراف قراقوش الذي لم تكن لديه أدنى دراية بقيمتها العلمية، قـد استغـل أولئك الدلالون تلك الفرصة أيما استغلال حيث عمدوا الى بيع تلك الكتب بأرخص الأثمان، مع احتفاظهم بالنفائس بها لتباع فيما بعد لحسابهم الخاص .

ولعل أبلغ وصف للكارثة التي الحقها الأيوبيون بالمكتبة الفاطمية في مستهل عصرهم، ما جاء على لسان العماد الكاتب الذي كان أحد شهود العيان على تلك الكارثة إذ يصف المكتبة بقوله (وفيها من الخطوط المنسوبة ما اختطفته الأيدي، واقتطعه التعدي وكانت كالميراث مع الأيتام يتصرف بشره الانتهاب والالتهام.).

بيد أن نهاية المكتبة الفاطمية وربما مكتبات الدُعاة الفاطميين كذلك، بتلك الطريقة المأساوية، كانت في الوقت ذاته ايذاناً بظهور نوعين جديدين من المكتبات، أولها المكتبات العامة ونعني بذلك المكتبات التي أُلحقت بالمدارس والمساجد وشهدت آنذاك نوعاً من الإنتعاش بحيث أصبحت قاعة الكتب جزءً لا يتجزأ من بقية منشآت المدرسة أو المسجد[[1]](#footnote-1)(6). أما النوع الآخر فهي المكتبات الخاصة التي شيدها العلماء والفقهاء لأغراضهم الخاصه

**م.د.ازهار غازي**

قسم التاريخ /كليه التربيه الاساسيه

1. (6) الأسنوي، طبقات الشافعية، جـ1، ص493؛ المقريزي، الخطط، جـ2، ص367. [↑](#footnote-ref-1)